دراسة في الأدب البطولي

من أحياء الاحتضار

بقلم شاكر حسن سعيد

(انهم ، ابدا ، في منعطف طريق . معذبون بكل هدوء ولا من مصير ، متطورون بكل رسوخ ولا من توبة) .

مقدمة :

ثمة رجال ونساء . وهم في ظروف معينة يحققون خلالهم الانسان .

ولكن التاريخ يحدثنا باستمرار عن انماط من البشر كان لها ان تكون في مصاف الآلهة او انصاف الالهة ، ومع ذلك فما كان عليهم ، ببساطة ، الا ان يشعروا وهم في ساعات احتضارهم بهذا الحب الازلي للحياة ، ومن اجل الحياة كان عليهم ان يموتوا في الوقت المناسب .

ولقد يبدو لاول وهلة ان الامر في غاية اليسر . فلكي اعرف نفسي بداهة فما علي الا ان افكر لو اني احتضر ، او اتنفس ، او اسير .... ولكن انسانيتي ليست غريبة عني الى هذا الحد . ليس الامر ان اكتشف اني حي لاني قادر على تصور احتضاري او تنفسي او سيري . هل الاحتضار ـ في الظاهر ـ الا ان اكون رمادي الوجه ، زائغ البصر وعلى اديمي بضع قطرات من العرق؟ وهل تنفسي الا ان اشهق وازفر واشعر بتسرب الهواء الى رئتي حينما يعلو صدري وترتعش ارنبتا انفي ..؟؟ وهل سيري الا ان انقل ساقي برتابة على الارض واحرك يدي وجذعي ؟؟ ولكن موتا مفاجئا ومناسبا لا يعادله سوى ولادة مناسبة . وما كان لي ان اتصور موتي ولا ولادتي . كل ما هنالك اني حي دونما بداية ولا نهاية . وفي ذلك معنى احتضاري .

ولكن شهيقا وزفيرا لانسان واع هو غياب تام لانسان فاقد الوعي ، وهو هو من احلام النائم ومن هذيان المحموم . فانا لا (ادركه) اذن بواسطة اجهزتي واعضائي وانما (اعيشه) بكليتي . وكذلك معنى كوني اسير .

كان علي مرة ان اجاهد للنجاة من الغرق :

كنت اتدرب على السباحة عند منعطف (دجله) في احد احياء بغداد القديمة ، وكنت اشعر بمستوى الماء يرتفع الى رقبتي فذقني فانفي . وكنت هادئا افكر باستحالة موتي وقتئذ . وفجاة كاد كل شيء ان ينتهي. ولم اعد افكر بشيء البتة . ولكن جسدي كان يكافح من اجل ان يتنفس ، ان يحيا . واحاطني الماء كانه اخطبوط . وبغتة اضحى علي بدوري ان انقلب الى اخطبوط آخر حينما شعرت باذرع تمسك بي . وكان على منقذي ان يكافح بدوره ضدي ، فلقد كدت اشركه معي في كفاح مجانبي ضد الماء . فهل كنت لاتنفس حينئذ كما اتنفس الآن ؟.. لم يعد الامر ان اشهق وازفر فحسب ، ولا ان يقوم حجابي الحاجز بوظيفته المعهودة في ذلك . ولكنها عملية ولادة سلبية . وكما كان على شخصية الطفل خلالي ان تفيق بمجهود مفاجيء على هذا الغلاف الذي لا لون له ولا طعم باول صرخة بكاء عند كفي قابلة ، كان على الطفل نفسه ان يكافح بنفس المجهود لنبذ هذا الذي هو (ماء) . وهانذا اعرف كيف كان علي ان اقبل على الموت ، واتنفس ، وامشي ، في الوقت نفسه . لقد ركز (الاحتضار) حقيقتي الانسانية في عقيدتي ضد الموت . ولكني لم امت . وكان ممكنا ان اموت . ولم يكن بسيطا ان اكتشف اني انسان حي . فلم يكن الاوان بعد قد آن . ولم تعد انسانيتي سوى وحدة جهودي ووجودي للاتفاق على الالتئام ، وعلى ان اكون ما بين بداية ونهاية ، وعلى ان اوجد عند منعطف طريق .

انه سيكون ازاء شيء ما ، كان هو الاخر عند منعطفه . فاذا لم يكن كذلك اهلا لان يجابه شيئا ما ، وان يقبل احتضاره من اجل ان يجابهه هذا الشيء ، فما هو الا ميت لا حراك به .

فهل كان (الانسان الاله) هو الذي سيتجاوز منطلقه دونما تردد متمتعا بلوعة انسان حي ، وان يقول بعد ذلك :

« كلا . لم يكن الامر على غاية البساطة واليسر . وكل ما فيه اني تحملت مسؤليتي » ..

*

ويحدثنا التاريخ ايضا عن آلهة كانوا في مصاف البشر . وانه لسرور عميم ان يستحيل الجلاد الى ضحية . ولكن براءة الانسان المسؤول ، وعودته الى نضارته ليست ، ابدا ، من توبته . فالتوبة خارج المنطلق والمخب . وما كان على (اله) ان يكون في مصاف (انسان) دونما عثر . على ان (الاله ـ الانسان) هو الذي سيبرهن لنا محتضرا انه اهل لان يصبح انسانا ازاء شيء ما كي يستحيل الى اله آخر الامر . وهكذا . لن يسترى (اله تائب) مع (اله بريء) او لن يستوى اله يستحيل الى انسان ازاء اله يعيش انسانيته باستمرار . وعلى النقيض فقد يتكافا (اله تائب) مع (انسان تائب) . ولكن التوبة هي الخيبة واللامعنى . وهي هي ضياع ابدي وموت بلا ولادة .

الا ان درب (الصد مارد) (1) سيجد تطوره آخر الامر في مصير الامير الضائع ، والذي كان يعود ، ابدا ، فيبحث من جديد عن مدينته المسحورة النائية . وما كان ليجدها الا بعد ان يدرك ضياعها اذا كان سيعود ..

اجل ، ما الانسان سوى كل مراحله . فهو لن يستغني عن (براءته) وان كان له ان يعدم (توبته) . وكذلك اي اله .

*

تحدثنا احدى المواعظ الدينية (وهي من ترسبات ثقافتي الدينية في فترة المراهقة) عن اخوين : احدهما ضال ، والاخر مؤمن . وقد كان الاول يقضي اوقاته في وسط المدينة الصاخبة عند السفح : لاهيا متمتعا دونما هوادة . وكان الاخر يقضي عزلته في صومعته عند الذروة : ـ زاهدا

(1) (درب الصد مارد) من طلاسم الحكايات الخرافية الدارجة . وهو الذي يعرف في الملاحم القديمة بـ (الطريق الذي لا رجعة له) ولعل المقصود به هو (سبيل المغامرة) بالنسبة للبطل لانه سيكون في ـ سلوكه هذا السبيل ـ مقدما على السير فيه حتى النهاية

متعبدا . وتشاء الآلهة ان تلهم كلا منهما مصيره . فيتساءل الاول : ـ « الا يجدر بي ان اقضي بقية عمري زاهدا عند اخي ...؟ فالام هذا العبث ..!! » ويتساءل الثاني : ـ « ماذا افدت من عمري المنصرم . وقد كان علي ان اكون هناك متمتعا .. ؟» ويسلك احدهما الطريق نحو الذروة، والاخر الطريق نحو السفح . ثم يلتقيان في منتصف الطريق (ولعلهما التقيا عند المنعطف) . فماذا كانت نتيجة لقائهما ؟ .. كانت ان يموت كلاهما . وتخبرنا الاسطورة الدينية ان احدهما مات على صواب . الا يجدر بنا ان نتساءل عمن كان حقا عند منعطف الطريق ..؟! ام هل كان كلاهما ..؟ الا ان التوبة غير البراءة . واغلب الظن ان كلا منهما مات تائبا . فما كان اي منهما اذن على صواب . لقد تخلى كلاهما عن عقيدته قبل ان يجرب سواها . فمن يعلم انه تخلى عنها ليستبدلها ما دام قد قضى في منتصف الطريق ..؟؟

اجل لقد مات كلاهما على خطأ .

التوبة ..؟ ليس ثمة توبة حيه لانها موت حي . ولكنها (البراءة) . ومعنى ذلك ايضا : ـ ان ثمة انماطا من البشر ، لم يكن في وسعهم ان يصبحوا آلهة . فهم يولدون ويموتون باستمرار . واولئك هم أحباء الاحتضار المنشود . انهم ابدا في منعطف طريق ، معذبون بكل هدوء ولا من مصير ، منطورون بكل رسوخ ولا من توبة . ذلك لانهم ابرياء .

قد يقول البعض : ـ « لم اكن لاعترف بتوبتي ما دمت لم اتحمل مسؤلية ما . فلم اكن سوى على براءة الطفل » . وهذه هي بداية الطريق وهو هو نفس تصريح السندباد الفر عند اقذار ميناء مدينة البصرة ، في ابان العصر العباسي الباذخ . ولكن براءة (الطفل الطفل) هي بداية دونما عودة . في حين ستكون براءة (الرجل الطفل) من رحلات سندباد في مرحلة اسفاره الوسطى .(٢)

ومع ذلك ، فما دامت العودة الى البداية في كل آن هي مغبة الماضين نحو مصيرهم بثبات ، فانها عملية (اخصاء) الا اذا كان ثمة (طغيان) يجنب الانسان المسؤول مصيره ، ويمسخه انسانا بريئا على عدد اللحظات وحينئذ سيكون في هذه الحال الاخرى عملية (تجديد الشباب) . اجل، فما كان لوزر جريمة مبررة (وهي كذلك في عرف القيم التقليدية) ان يثقل على كواهلنا باستمرار ، فانه سيتلاشى ذات امسية كئيبة على حدود زنزانة مظلمة .

وتدق ساعة الخلاص (٣)

*

نماذج :

تحدثنا (الملاحم القديمة) فـ(الميثولوجيا في الاسلام) فـ(ادب النضال)(٤) عن رجال ونساء كانوا يكافحون الموت . وانها لامثلة عالية لانها ملك الانسانية جمعاء . وفي كل عصر ومكان . ولانها كذلك فهي ايضا امثلة حية ، تولد معنا وتحيا وتنتهي . غير ان منها ما هو اقرب الينا من الاخرى، وهي التي نكتشف فيها ذواتنا .

ـ ١ ـ

في مطلع الالف الرابع قبل الميلاد ، اضحى لحاكم احدى المدن ، ازاء احد رعاياه (انكيدو) ، ان يكون نموذجا ازليا ، مثلما كان على جده المزارع او رجل الكهف الصائد ان يكون بطل ما يدعى بالطوفان .

ولكن مسؤولية اي منهما لم تكن سوى تلك المواقف النضالية العريقة ـ (جلجامش يعارك انكيدو ، جلجامش وانكيدو في صراع مشترك ضد خمبابا ، جلجامش الهلع امام سر الموت ، انكيدو المحتضر ، انكيدو المتحدى لسطوة الارباب الخ ...) وتسرد لنا الملحمة المزعومة آيات من المواقف لبشر اضحوا في مصاف الآلهة ، او آلهة عادت بشرا . وآخرون تبرأوا واخرون تابوا . ففي مطلع احدى الظهيرات الصائفة كان على جبارين ان يتخاصما . وسرعان ما استحال انسان الغاب الى انسان المدينه . فما بين عراك مقدس بين اله (او نصف اله هو جلجامش) وانسان متوحش (هو انكيدو) كانت ذرى التجارب الانسانية المسؤولة تتحضر . ولا بد ان كل مشاعر المحارب المغامر (في ابان غارات مستعملي الاسلحة النحاسية وراكبي الخيول الاوائل ـ في منطقة الشرق الاوسط ـ وسواق عربات القتال ذات العجلتين) كانت تتقطر في تسامي ملامح الانسان المختصم الى ملامح الحيوان . ومن ثم كان مبرر مؤلف الملحمة ان يحدثنا آخر الامر بلهجة المتيقن عن انسان ـ نصف اله ـ او عن مغامرين سيتغلبون على آلهة شريرة ، ذلك ان اختمار الشعور الانساني المعاني كان ولا بد يملي على المؤلف ، مؤلف الاسطورة ، هذا التنابذ الفذ بين ما هو انساني وما هو حيواني ، غير ان مغزى كل ذلك سيظل كامنا في تمحيص مسؤولية الانسان من كل ذلك . فباي هلع واحتضار كان على (انكيدو) المضحى بنفسه او عشتار ـ الالاهة التي تود الهبوط الى العالم السفلي ان تقدم على الموت ..؟ وباي رباطة جاش كان على (جلجامش) ان يتلقى خيانة القدر اباه بعد ان سرقت ثمار خلوده الى الابد ..؟ واخيرا اي قلق اخاذ كان سيدفع بـ (جلجامش) بعد موت انكيدو الى المغامرة عبر بحر الموت للحصول على سر الخلود ..؟

ومع ذلك فان احتضار اي بطل كـ (جلجامش) لم يكن سوى تجربة المثال الاشوري المماثلة التي هيأت له فرصة انجاز تمثال البطل بعينيه المفتوحتين على مزيج من الحنق والغضب ، وعلى قوته الخارقة للعادة بتطويع شبل سيستحيل بين يديه الى حمل عنود . وانه لاحتضار الانسان النحات (الذي كان ولا بد قد عاش تجربة المحارب الاشوري) في احد مواقفه ، وفي منعطف طريق كيما يصوغه من جديد في هيئة تمثال يتعذب باستمرار ، ولو بواسطة شجاعته وبطولته (×)

فالنماذج الملحمية القديمة في اساسها لم تكن اذن سوى نماذج بشرية

(٢) راجع مقالنا المنشور في هذه المجلة بعنوان (هلع السندباد البحري)

(٣) ما كان لي ان امس سحر الرمز في هذا المقال . ولكن ساعة الخلاص هي بداية اية مرحلة جديدة ، مثلما هي نهاية المرحلة القديمة.

(٤) من (الملاحم القديمة) التي اعتمدنا عليها في هذا القسم من المقال (ملحمة جلجامش) وتفاصيل (نزول عشتار الى العالم السفلي) و (نزول انكيدو الى العالم السفلي) او تسمية من هذا القبيل) ، راجع مجلة سومر ـ العدد (٢٤١) عام ١٩٥٠ . اما (الميثولوجيا الاسلامية) فالمقصود بها تلك الحكايات المتناقلة والقصص الدينية المدونة ابتداء من القرن الثامن الميلادي بظهور الدين الاسلامي حتى الوقت الحاضر ، ومن اهمها (اسطورة المعراج) وكرامات الاولياء . ومنها ـ وهو ما تطور بعد ظهور الفرق الدينية المختلفة ـ ادب المقاتل ـ اي ما يتعلق بمذبحة كربلاء والمذابح الثأرية المتعلقة بها وكرامات العلويين . وتدور جميعها حول خوارق الاعمال المنسوبة لهم . اما (ادب النضال) فهو ما دون حتى الان ـ وما اقله ـ عما يتعلق بكفاح المناضلين التقدميين على تنوعهم من سياسيين وعسكريين ومثقفين وعامة ، ازاء الطغيان والاستعمار ورجال العهود البائدة .

(×) انظر الصورة التوضيحية التي تمثل البطل جلجامش . من مسطحات متحف اللوفر ـ القاعة الاشورية .

لاناس استحالوا الى آلهة عبر التاريخ ، وآلهة يستحيلون الى بشر وآخرون عانوا تجربة مماثلة لساعة احتضار . الا ان احتضار انسان الحضارات القديمة كان ما يفتأ يتحضر في الاسطورة التي تسرد لنا اول محاولة للهبوط الى عالم الموتى (وان تفاصيلها لتروى لنا في اطار أخاذ . وكيف ان اي هبوط نحو الموت يقترن ايضا بعرى الانسان عريا فاضحا سيؤدي به اخر الامر الى الموت) (٥)ذلكان (عشتار) التي تود زيارة اختها ملكة الموت (ايريشكيال) كانت ماتني تحتضر عند كل مدخل ستسلب فيه اشياؤها : ـ ملابسها الخارجية ، مصوغاتها ، ملابسها الداخلية . ومعنى هذا انها لم تكن تستسلم طائعة . (عشتار) ، ربة الحب والجمال والحرب التي لم تتحمل هزيمتها الحبيه . اما (جلجامش) فتهدد اباها (آنليل) اذا لم يعاقب معشوقها المتمنع بان يرسل لمعاقبته (ثور السماء) ، تستسلم ..؟ ولكنها كانت مع ذلك تحتضر . وان احتضارها ليتمثل في اللحظة التي تقتضيها قوانين العالم السفلى (وما هو الا عالم الموت والفناء) عند عريها مثلما تمثلها السومرية التي تستغرق ما بين نزولها وصعودها ثانية الى عالم الاحياء .

فباية حيوية لا تنضب كان على الالهة انتستحيل الى بشر على عدد اللحظات ؟ على انها من حيوية اناس كان بامكانهم ان يستحيلوا الىآلهة بشر من لحم ودم وغرائز وعواطف واحاسيس ، رجال ونساء ـ وقد يكون من بينهم اطفال ـ ما يفتأون يحققون في سلوكهم اعمارهم ، ويختصرون السنوات في ساعات ، والساعات في دقائق . ولكنهم في لحظةالاحتضار جملة من حروق وقلع للاظافر وقطع للاسنان ورضوض وجروح وكسور للعظام ، وغير ذلك من ضروب العذاب الجسدي . ولكنهم في لحظة الاحتضار كتلة من قلق ، وذكرى مؤلمة وشعور بالهوان وحرقة للانتقام وضياع فرصة المغامرة ، وغير ذلك من ضروب العذاب النفسي .

وهم مع ذلك ، بعد ، احياء.

وتقول الاسطورة ان عشتار كانت قد توقعت كلشيء منذ البداية . فكان على سكان العالم الارضي ان يفقدوا الحب والجمال بضياعها . وهكذا فانهم سرعان ما سيهددون الالهة بانهم سيشوهون نظام الخليقة وسنتها اذا لم تنقذها لهم ، وان الالهة سرعان ما ترضخ فتهب عشتار الحياة من جديد.

ومثل ذلك يصدق على (تموز) المحتضر باستمرار . فهو ما ان يحيا في اوائل الربيع حتى يموت في خريف العام نفسه . فهو في ولادة وموت سنويين ... ولادة وموت ، ولا نجاة له من عذاب خلاق

ولكن ، وبعد توالي الاجيال ، سرعان ما تبدأ مواقف الاحتضار بالوضوح اكثر فاكثر ، على غضون جبهات متواضعة (وقد تكون متقشفة) ما تنفك تستنزف من تلافيفها آيات من سجون حيواتها المترعة بالعذاب ، الطافحة بالتمرد .

ـ ٢ ـ

عند اعتاب بادية السماوة (وتمتد غربي العراق ما وراء الفرات الاوسط) دارت رحى معركة فاصلة في اواسط القرن السابع الميلادي

(٥) من الروايات النصف ـ خرافية عن عالم الموت ما اشيع عام ١٩٤١ (كما اتذكر) عن ان فتاة ـ من قرى العراق الاوسط تقع قرب مدينة (الفلوجه) ـ كانت قد دفنت بعد موتها الا انها ـ بمعجزة ما ـ استعادت حياتها في القبر ، وانها طيلة الفترة التي استغرقت ما بين يقظتها القبرية والعثور عليها فيما بعد كانت تحتفظ بحيويتها بمعونة (ملكين) كانا يلبسان البياض ويزوادنها بالطعام ويبعدان عنها وحشة القبر باغانيهما الابوية .

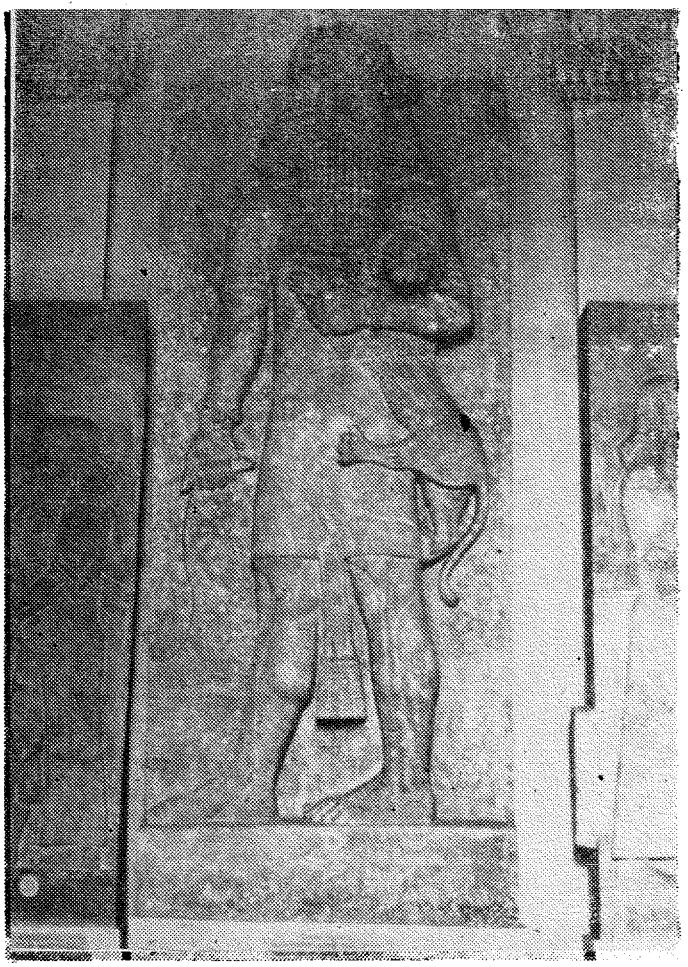

البطل جلجامش

مسطحة اشورية ـ متحف اللوفر ـ تصوير رستم

(٦٣٧ م) فكان منها مشاهد انسانية عصيبة تتكرر ، وتتكرر معها مواقف الشجاع والجبان على صعيد واحد . وكان احد الاعراب قد سجن لادمانه على الخمرة ، وانها لجريرة لا يصفح عنها في سياق الاخلاق الاسلامية الاولى ما دام ليس هناك مكان للخمرة المسكرة ازاء كل اعناب الجنة وانهارها العسلية واللبنية السائغة ولم يكن السجين على ما يظهر ليقلع عن عادته الا ليستبدلها بلحظات احتضاره . فما اشد عطش الجريح بجراحه.؟ ان جرعة يبل بها ريقه ، ويروي غلته كفيلة بأن تهبه الخلود . ولكأن جراح مدمن الخمرة كانت ان تسفح عنه خمرته (ما اشد ما يعاني مدمنو الخمرة الممنوعون عنها هذه التجربة) وهكذا . فان السجين لم يعد ليطيق سجنه : ـ فما قيمة بضعة قيود في المعصمين والرسغين ازاء حريته للتنفيس عن هذا الظمأ والتسامي به ..؟ وسرعان ما كان يسترق الرقيب كيما يساهم في القتال ، ثم يعود بعد انتهاء المعركة الى سجنه . فيلبس قيوده ، وينصاع برقيبه .

لم يكن الامر في الواقع رغبة السجين الشجاع لاثبات شجاعته ، لان شجاعة المقاتل المسلم لم تكن سوى لهفة الاعرابي خلاله الى بذخ ساكن الجنان ! الا ان شجاعة المتمرد المسلم هي من شجاعة ساعة الاحتضار . واذن فقد كان الانسان الذي يتقمص جسد الاعرابي المغامر لا يلبث ان يسترد انسانيته الصريعة بقيود السجن ساعة مواجهته شيئا ما. وما هو سوى انسان يابى ان يظل الها سجينا . فكان من متممات حريته ان تترنم

بعـده الاجيال :

« كفى حزنا ان تطرد الخيل بالقنا واني مشدود اجر وثاقيا »

وثمة مثل اخر : ـ ذلك ان الميثولوجيا في الاسلام تنص بصراحة على ان عذاب (شمر) (٦) الازلي سيمسخ خلاله شخصية الانسان الطاغية الى كلب يعوي عند كثبان مدافن الثوار في كربلاء وعند اعتاب سهول سواد العراق . وان لسانه سيظل راعفا بين ثناياه دون ان تبله قطرة ماء . بل انه ، زيادة في تعذيبه ، سيتوهم بوجود انهار وجداول عند الافق البعيد ، ما ان يصلها حتى يجد انها قد ابتعدت عنه من جديد . اجل انه كان يتعذب بعطشه لقاء تعذيبه ضحاياه بعطشهم (×x)

وسيكون هذا النموذج الثاني خير نموذج لعذاب ازلي . وانه من عذاب المحتضر ايضا لانه يفترض حالة هي ما بين الحياة والموت ، وما بين الامل واليأس . ولكن النموذج الاسطوري سيظل على وضوح معالمه البشرية مقنعا ، وعلى فترته القريبة بعيدا .

بيد ان النماذج القريبة حقا ستتمثل في اهاب اناس طبيعيين مات بعضهم ، ولا زال بعضهم احياء ، ولا تدري ما اذا كان سيتدلى لسان احدهم ، او يظل يرعف من الظما فيكون قد اصبح في مصاف آلهة شريرة ـ وانه لا يمكن ان يظل حيا ـ على رغم امكانية ذلك فيزيقيا ـ لانه يكون قد مات في ضمير الانسان العصري حينما استحال خلاله المسؤول الى تائب ، ومنذ ان فقد خلاله الغني بصراعه البطولي ملكية كمال مسماه البرىء كيما يصبح في عداد التائبين .

فلنتمثل ، اذن ، بهذه الامثلة القريبة :

ـ ٣ ـ

كان على زمرة من السجناء السياسيين ان تنتظر مصيرها بعناد (انها هي الاخرى زمرة حيل ما بينها وبين الماء عند كثبان كربلا) وتحدثنا اعترافات البعض ، ومشاهد عيانية للبعض الاخر عن ان فرصا عديدة للخلاص كانت تمنح لهم منذ البداية كيما يعودوا (ابرياء من وزر الجريمة المزعومة ، وليس من وزر مصيرهم الالهي) وانها لا تفصح بالطبع عن هذه البركة الواسعة المفرطة التي ستهبهم الحياة ، او الحرية او العذاب . ولكنها كانت كفيلة ان تمنحهم احتضارهم ، وان تسممهم بوجباتهم ، بما تمسخهم به من كونهم آلهة شريرة ، ملطخة بوزر جريمة ازلية . الا انهم كانوا يبرهنون لنا باستمرار على انهم اناس على صواب ماضون نحو مصائرهم ازاء شيء ما ،وان عليهم بغتة ان يستحيلوا الى انماط : ـ (بشر ـ آلهة) او (آلهة ـ بشر) . فهل كان فيهم من يولدون ويموتون على عدد اللحظات ؟.. هل كان فيهم من ظل متحديا مصيره ، لا مستثبتا ولا مستخذلا ..؟

وما كان على ظهيرة صيف ولا ليلة من ليالي آب ان تكرس جهودها متبرمة بشرذمة تابى ان تتخاذل . وكان عليها ان ترضخ لصرامة نظامها الفاضح ، وحزم اقدامها الابي ..! وكان عليها ان تعترف باحتضار سجين السواد ألحي . اجل كان فيهم من ولد ومات على عدد اللحظات ، وهم لا يزالون هناك في اطراف هذا العالم ، وفي كل زمان ومكان سجناء احرار . وكم من سجنا ولا قيد !..

قيل ان ثمة من كان يقول وحبل المشنقة في عنقه « عقيدتي اقوى من الموت واعلى من المشنقة » او « لي الشرف ان اشنق في هذا المكان الذي تنطلق منه مظاهرات ابناء الشعب » (٧) الخ .. وان ذلك في انتظار المصير .. مصير المحكوم عليه ، السياسي الشهيد . ولكن هذا ليس من حياة الاحتضار . ان مناسبة ساعة الفصل كانت تفترض كل ذلك كيما تميز الشجاع عن الجبان والذبيحة عن الميتة ، وانهم لرجال حقا اولئك الذين لم يتخاذلوا ساعة الموت . ويقال ان ثمة آخرين ممن غشى عليهم ، وعلقت باعناقهم الحبال دون ان ينبسوا بكلمة (٨). الا ان الامر ليس هذا ولا ذاك . فباي ثمن كان على المحكوم عليه بالاعدام ان يتساءل في دخيلته : ـ ها ان حياتي تنضب الان واني لاتذوقها لاخر قطرة فهل يتسنى لي ان اناضل من اجلها ..؟ او « ربي . لماذا تخليت عني.. »(٩) او اي شيء يعبر به الانسان المحتضر عن احتضاره : ان يعيشه ويحياه ، لا ان ان يهمله سواء بواسطة ثباته او تخاذله . ليس التساؤل هو : ـ الا يجدر بي ان اتماسك ..؟ ولكن اصرارا رهيبا في لحظات احتضار اخرى ـ وما اكثرها ـ هو الذي يشدد عزم الذي لم يقبل التوبه . فكان عليه لذلك ان يعود بريئا ، في اللحظة ، ناصعا في التشبث بجريمته (؟) بعقيدته.. باخلاصه،رغم عذابات واهوال زنزانة التعذيب او المسالخ البشرية النائية(١٠).

ولكن اصرارا رهيبا يتحدى الموت هو الذي يمسخ لحظة المناسبة الى المجان ، وما هو نسبي لما هو مطلق ، وذلك حينما سيتجلى في عناد الانسان بآخر لحظة من لحظات حياته على ان يجترها ويتذوقها ، ويدفع به الى ان يؤكد ـ بلا تطرف ـ ديمومته ، وعقيدته وحقده العادل . انه نفوذ من اطار الموت النسبي نحو الحياة الازلية . انه تارجح من اجل الاحتفاظ بتوازن الجسم عند حافة هاوية لا قرار لها ولا قعر .

ولكن هناك احتضارات لم تكن لتتجاوز مناسبتها المقتصرة على بضعة جمل ، او تهالك اعيائي محزن . انها لم تتجاوزها لانها بلا مناسبة ، ولا نهاية . اجل ليس التساؤل هو :ـ

الا يجدر بي ان اتماسك .. ؟ ويكون الجواب النفسي والشخصي ان يتماسك المحكوم عليه ... ويخطب في الجموع . وليس التساؤل هو : ـ الا يجدر بي التخلص من عذابي الاخير بصورة من الصور وباي

---

(٦) وهو شرحبيل بن عمرو بن معاوية من آل الوحيد من بني عامر. راجع للالمام بشخصية الشمر في الفن الشعبي مقالنا المنشور في نفس هذه المجلة : (محنة الشمر في دار الانتقام) ص ٤٢ ـ ٤٨ ، الاداب ج(٨) السنة ١٩٥٤

(×x) ان اسطورة (عذاب الشمر) هذه من اشهر الاساطير الدينية الاسلامية المتناقلة ويعتقد بها كثيرون على انها واقع يقين . ولعل من الجدير ان نشير الى ان هناك مجالا واسعا لبحث هذا التراث الشعبي الخالد اذ ان من الممكن استقصاءه حتى جذوره في الملاحم القديمة لاستشفاف الضمير الجماعي في بلاد الرافدين .

(٧) ما بين الاقواس من اقوال السجناء السياسيين في العراق عند عتبة المشنقة . وقد اضطررنا الى تحريف قليل في النصوص تمشيا مع سياق الموضوع والصياغه ـ يمكن مراجعة الاصل في كتاب (من اعماق السجون في العراق) تأليف محمد راشد .

(٨) من المناسب ان يقال ان انهيار المحكوم عليه بالاعدام ليس بالامر الفاضح ، طالما لم يكن هو الثمن الذي سيهبه حياته . فليس مجابهة الموت بالامر الحين على كل حال . فمن يدري بأية درجة من الاحتمال يمكن لبعض من يقبل على الموت ان يتماسك ..؟

(٩) هذا هو قول المسيح المشهور عند احتضاره

(١٠) اعتمدنا في كتابة القسم الثالث من المقال على كتاب (من اعماق السجون في العراق لمحمد راشد) . ونحن في الوقت الذي نشيد به بهذا المؤلف الفذ الذي يكاد ان يكون الوحيد من نوعه في ادب النضال ، نهنيء عزيزنا مؤلف الكتاب لبراعته واخلاصه في التأليف .

ثمن ..؟ فيكون الثمن ان يفقد الانسان وعيه لكي يتملص من عذابه الجسدي والنفسي . فالعاقبة واحدة في كلا الحالتين ، ولو ان القيمة مختلفة ـ كلا ـ التساؤل هو ان يتذوق الانسان حياته قطرة قطرة حتى اللحظة الاخيرة ، فيكون من صراعه الآني اي كفاح مستمر للاحتفاظ بانسانيته .

ونفس هذا الصراع بالذات، كان على محكوم عليه بالاعدام ان يعيشه في الوقت الذي يرفضه.فلن تحدثنا عنه فيالواقع اساطير ولا ميثولوجيا. ولكن من عاشه هو انسان متواضع ومخلص لعقيدته ، رضى ان يظل انسانا حيا مهما كانوا قد ارادوا له ان يموت ويقال انه اصيب في سجنه بمرض عضال الا انه كان لا يزال يعيد الكرة فالكرة حتى ساعة الخلاص .

اكان اذن ممن يولدون ويموتون على عدد اللحظات ..؟ اكان من احياء الاحتضار المنشود ؟؟. ويقول احد النصوص (11) انه هرب وزمرة من رفاقه عدة مرات من السجن . وكان في كل مرة تضاعف محكومياتهم سنوات وسنوات . فباية حيوية كان على السجين الهارب ان يهرب .؟ وباية نفسية كان على المناضل المخذول ان يعمل من جديد ؟.

حقا ، ان ساعة الخلاص كانت تدق عند بداية كل طريق .. وحينما كان على السجين ان يتنسم هواء الضاحية المشبع بروائح زهور الفواكه بعد جهد جهيد لحفر الخندق او لاجتياز طريق النجاة فانه سيكون مقدما آنئذ على شيء ما سيجابهه . فليس لديه الا ان يدفع بنفسه نحو فضاء حيل ما بينه وبينه بواسطة قيود زائفة غير مشروعة . وانها لقوانين العالم السفلي من الفيات ما قبل المسيح .. وانها لمن طقوس صحراء البادية المحرقة ، ومن عوالم حيوانات عطشى لا يبل صداها .

وكان على اي محتضر ان يقول فيما بعد ، وهو يتذوق موته دونما هوادة ، وحيدا بين عبرات الزملاء الرجال المكتومه :

« بلغوا سلامي اليهم واحدا ، واحدا . بلغوا سلامي الى امي .»(12)

ويظل حيا في عقيدته .

وثمة منازعة من نوع آخر . فحينما كان على الصائم ان ينتظر لحظة ان يخضل الافق الغربي باللون الوردي ، وان تبطيء الشمس بالمغيب كان على عطشه الصيفي وشهوانه بالشبع ان يقترنا بتلكؤ المؤذن في اعلان الصلاة ، ودوى (مدفع الافطار) ببدء فكاكه من الاسر ـ ولكن صياما من نوع اخر هو الذي كان يحفز (السجين السياسي) ويحرضه على الاضراب عن الطعام . وسيكون من طقوس عطشى الصائم السجين بالحرية عطشه بحباب الماء ، او جوعه بوجبات الطعام اليومية ، وبحقوقه المشروعه في مثواه ، وبالنوم في العراء ورؤية طلعة طفل بريء، وبالامن والحياةوالسلام.

ولكن لحظة من صيام المؤمن هي دهر من اضراب السجين . انه صوم ابدي لافطار ابدي . انه صوم (المعتقد) بحقوقه المشروعة ، واضراب الحر عن عبوديته . ومن ثم ، فما كان لآذان السجين الا ان يهتف ببوقه معلنا افطاره الميتافيزيقي على اسماع احياء المدينة المنتظرة : « يا جماهير شعبنا المجاهد ـ يا جماهير الكوت الباسله . يا جماهير الكوت !! . لقد قطع الماء والطعام عنا ، واصبحت حياتنا مهددة بالخطر . ان الخونة يريدون قتلنا جميعا .. » (13) وسيتلوه بعد ذلك دوي انفجار مدفع الافطار الموتى على وقع خطى ساعات الفجر الحالكة . ويسقط الرعيل الاخر من الشهداء المفطرين .

وعلى ماذا كان سيفطر اولئك الصيام . على ماذا ..؟ ولكنها وجبة عشاء مباركة بحمرتها ، وانها لالوان من الطعام البشري الساخن:دماءفائرة ونفثات الزفير الحار ، ونثار المخ الانساني الوردي يشبع عيون زملاء صامدين في ساعة افطار سائغة . ويستمر المضربون في تناول وجباتهم الربانية ... وحيدين ، عزلا ، ابرياء. ويبدا نهار المحتضر الحي على اصوات الجرحى وانينهم . فاي سعور بالنضوب كان سيرافق جسم المضرب الملتاع .. ؟ واي دفاع عن النفس كان سيلهب حماسه المهدد؟ ولكن هذا النضوب وذلك الحماس لا يني يرافقه حتى لحظة الاسحار . فما كان على الجريح الفاقد لوعيه الا ان يتاوه في غمرة اعيائه وسيدفعه احتضار الجريح نحو صراعه الصومي السرمدي كيما تترى عبارات بسيطة وغنية ستطرق اسماع الاجيال الى الابد .

« نعيش كرماء او نموت شهداء »

لا نهاب الرصاص ، لا نهاب الرصاص

الموت او حقوقنا العادلة ، الموت للجلادين

الموت للخونة الجبناء(14)

ولكن ... من لا افطار له البتة انه سجين حر ، ومضرب شبع ، وستزداد له محكوميات ، ستزاد سنوات وسنوات ، ولكنه سيعود من جديد الى شهر صيامه وطقوسه .

سيضرب .

★

لحظة الغرق ، وبراءة الرجل الطفل ، ـ انهما من تفاصيل تلك النماذج الازلية المنوعة : ـ ففي مطلع الالفالثالث قبل الميلاد اضحىلحاكم احدى مدن العراق ازاء احد رعاتها ان يكون نموذجا ازليا .. وعند اعتاب (السماوة) كان الانسان الذي ينتقمص جسد الاعرابي المغامر لا يلبث ان يسترد انسانيته الصريعة بقيود السجن ساعة سجنه .. وسيعوي عند كثبان مداخن الثوار في (كربلا) وعند اعتاب سهول العراق كلب ممسوخ ولسانه يرعف بين ثناياه .. وما بعد الاربعينات الاولى من القرن العشرين كان على زمرة من السجناء السياسيين ان تنتظر مصيرها بعناد.

وما ذلك الا ـ باختصار ـ من حياة الاحتضار .

ان صراعا سيتحدى الموت ، هو الذي يمسخ لحظة المناسبة الى المجان ، وما هو نسبي الى ما هو مطلق .

حقا ... ان ساعة الفصل كانت ستدق عند بداية كل منعطف طريق.

انه طريق الحرية والانسانية . انه الطريق الازلي للحياة .

باريس

شاكر حسن سعيد

---

(11) (وفي المحكمة اعلن (ح.ع) بعد القاء القبض عليه وسوقه الى السجون العراقية ، بتهمة الهروب اعلن بان السجناءالسياسيين لا يعترفون بمشروعية سجنهم ، وانهم سينتهزون اية فرصة لاستعادة حريتهم ومواصلة نضالهم الى جانب الشعب من حاشية صفحة ٧٣ ـ المرجع السابق.

(12)المرجع السابق (١٠٦) ومن اقوال الشهيد المحتضر المار الذكر ، والذي يعتقد له المؤلف فصلا رائعا ، قوله : وقد استفاق ثانية واصغى الى صوت البوق يعلن وفاته « انا لا اموت ، الشهداء لا يموتون . ان ذكراي ستبقى خالدة . » وقوله كذلك « ايها الرفاق فلتصمد حتى النهاية ... فالنصر اتٍ حتماً » ص ١٠٦

(13) نفس المرجع السابق ص (٧٤).

(14) نفس المرجع السابق ص (١٠٢ ، ١٠٣) وهذه هي اولى شعارات السجناء بعد ان باغتهم رصاص السجانين ـ ويقول المؤلف في هذا الصدد (كان اطلاق الرصاص مفاجأة تلقاها السجناء بالهتافات) ويقول ايضا (فصار الرصاص ينصب من كل جانب : من البرج والسطوح والباب) .